

## الدرس الثاني

### دعوة موسى عليه السلام

﴿ وَالْقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ  
وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ  
لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَخْرَجَكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ  
الْعَذَابِ وَيُذَخِّبُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ فِي ذَالِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ  
رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ  
عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٥٢﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ نَكَفَرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّ اللَّهَ  
لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٥٣﴾ (إبراهيم: ٥-٨) .

### قصة موسى عليه السلام في القرآن :

بعد أن أخبرنا الله سبحانه أنه يرسل رسله بلسان أقوامهم ؛ ليبيّنوا لهم ، وأن هذه  
سنة من سننه في جميع من أرسلهم من النبيين ، قصّ علينا بإيجاز قصة أحد هؤلاء  
الرسل الذين أرسلهم إلى قومهم بلسانهم بلغتهم ليبيّن لهم ، هذا الرسول الكريم هو :  
أحد أولي العزم من الرسل ، الذي اصطفاه الله برسالاته وبكلامه ، خصّه من دون  
الرسل بأنه كلمه تكليماً ، أي مباشرة : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ  
مِّنْهُمْ مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ۗ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ (البقرة: ٢٥٣) ، الذي كلمه الله هو  
موسى عليه السلام .

## موسى عليه السلام أكثر الأنبياء ذكراً في القرآن :

وموسى قد عني القرآن الكريم بقصته مع فرعون وملئه ، وبقصته مع قومه بني إسرائيل ، ولذلك تكرر ذكر اسم موسى عليه السلام في القرآن : مائة وستاً وثلاثين مرة ، فهو أكثر نبي من الأنبياء ذكر اسمه في القرآن .

وسيدنا إبراهيم عليه السلام ذكر اسمه تسعاً وستين مرة .

وسيدنا نوح عليه السلام - شيخ المرسلين - ذكر اسمه ثلاثاً وأربعين مرة .

وسيدنا عيسى عليه السلام ذكر خمساً وعشرين مرة ، وإن كان ذكر أحياناً باسم المسيح ، وباسم ابن مريم ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا ﴾ (الزخرف: ٥٧) .

## حديث القرآن عن خاتم النبيين محمد عليه السلام :

أما محمد عليه السلام فلم يذكر باسمه إلا أربع مرّات : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَلَا يَنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ أُنْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ (آل عمران: ١٤٤) .  
﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٤٠) .

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ (محمد: ٢) .

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَزَعٍ أُخْرِجَ شَطْرُهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَعْطَفَ فَأَسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوْقِهِ يُعْجَبُ الزُّرَّاعُ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (الفتح: ٢٩) .

هل لأن أمر محمد هين عند ربه؟! لا ؛ لأن القرآن كله عن محمد ﷺ ، فأحياناً يذكر باسم النبيّ واسم الرسول : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ (الأحزاب: ٦) ، ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ (الحجرات: ١) ، ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ (الحجرات: ٢) ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ (الحجرات: ٣) .

فالحديثُ عنه ﷺ تحت اسم : النبي ، والرسول ، ورسول الله ، وبالخطاب المباشر ﴿ وَالصُّحَىٰ ۖ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۗ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۗ ﴾ (الضحى: ١-٥) ، إلى آخر السورة ، ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۖ ﴾ (الضحى: ١-٥) ، إلى آخر السورة ، ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ (الشرح: ١-٤) .

فالقرآن خطابٌ لمحمد ، أو حديثٌ عن محمد ، وعن دعوة محمد ، وعن رسالة محمد ﷺ .

### عناية القرآن بقصة موسى عليه السلام :

المهم أن القرآن عني بقصة موسى ، حتى قال بعض علماء التفسير وعلوم القرآن : كاد القرآن أن يكون كله موسى<sup>(١)</sup> . بمعنى أنه ذكر مائة وستاً وثلاثين مرة ، وفي بعض الأحيان يطيل الحديث عنه ، في سورة البقرة تحدّث عن موسى وبني إسرائيل ، وفي سورة المائدة ، وفي سورة الأعراف أطال ذكر قصته وخصوصاً بعد أن نُجِّي بنو إسرائيل من آل فرعون ، وفي سورة طه ، وسورة القصص ، وسورة الشعراء ، وفي سور كثيرة .

(١) الإتيان في علوم القرآن للسيوطي (١٩٩/١) .

## قضية الرسل والرسالة في سورة إبراهيم :

وهنا ذكر عن موسى كلاماً موجزاً لمناسبة أن الله لم يرسل رسولاً إلا بلسان قومه ليبيّن لهم ، ومن يتأمل سورة إبراهيم يجدها تدور حول قضية الرسل والرسالة .

الرسل ، وأقوام الرسل الظلمة الذين وقفوا في وجه الرسل ، وقاوموهم وعاندوهم ، هذا ما نراه في هذه السورة : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ (إبراهيم: ٤) ، ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ (إبراهيم: ٥) ، ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِ اللَّهِ شَكٌّ فَأطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (إبراهيم: ١٠) ، ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ (إبراهيم: ١١) ، ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ (إبراهيم: ١٣) ، ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلُهُ ﴾ (إبراهيم: ٤٧) ، إلى آخر السورة .

دلالة كلمة (لقد) :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾

علماء العربية يقولون : اللام هنا موطئة للقسم ، كأن الله يقسم (والله قد) . و(قد) هنا للتحقيق : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ ﴾ ، يؤكد أن الله أرسل موسى بما ذكره : ﴿ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ .

الآيات الدالة على صحة النبوة :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا ﴾ الآيات هي المؤيدات الدالات على صحة النبوة وصدق النبي ، أو ما يسميه علماء العقائد أو علماء الكلام في تراثنا : (المعجزات) . القرآن لم يجئ بهذا المصطلح مطلقاً ، فكلمة المعجزات لم تجئ

في القرآن أبداً ، إنما جاء في القرآن : الآيات والبيّنات ، فالله يُؤيّدُ رسلَهُ بآياته وبيّناته : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ ﴾ (الحديد: ٢٥) ، ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴾

(البقرة: ٩٩) .

فالله أرسل رسله بالآيات ، أي : ما يدلُّ على صدقهم وصحّة دعوتهم ، قد يكون ذلك بمعجزة خارقة للعادة ، مثل : قوم صالح حين قالوا : ﴿ فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ ﴾ (الشعراء: ١٥٤، ١٥٥) ، فأخرج لهم ناقة .

ولكن أحياناً قد تكون لهم آية ، وهي : سيرة الرسول نفسه ، سيرته دالة على صدقه ، وأنه غير كذاب ، وقد تكون شهادة قومه له بأنهم لم يروا فيه إلا خيراً ، ولم يسمعوا عنه إلا صدقاً . . . إلخ .

سيدنا موسى أوتيَ تسع آيات بيّنات ، حينما تحدّى فرعون ووقف يجادله ، قال له : ﴿ لَئِنِ اتَّخَذَتِ الْهٰٓءَا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِيْنَ ﴾ (٢٠) قَالَ أَوْلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ ﴿٢٢﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٢٣﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنّٰظِرِيْنَ ﴿٢٤﴾ (الشعراء: ٢٩-٣٣) .

سيدنا موسى كان آدم ، أي : أسمر ، صارت يده بيضاء من غير سوء ، أي : من غير برص أو شيء من هذا . فهذه بعض آياته ، غير آيات أخرى ، ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ (الإسراء: ١٠١) .

رسالة موسى إلى قومه وفرعون وملئه :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾

هل كان موسى مرسلأ إلى قومه؟ أم إلى فرعون وملئه؟ في كثير من الآيات يذكر : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَٓئِهِ

فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿ (هود: ٩٦، ٩٧) ، وفي آية أخرى :  
﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَمَمْنَا وَقَتْرُونَ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَابٌ ﴾ (غافر: ٢٤) .

فظاهر الأمر أنه أرسل إلى الاثنين معاً ، أول ما أرسله ربه : ﴿ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ  
إِنَّهُ طَغَى ﴿ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَٰهٌ إِلَّا أَنْ تَزْكَى ﴿ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴾ ﴿  
(النازعات: ١٧-١٩) ، وهو أيضاً مُرسل إلى قومه ، فمهمته تحرير قومه من سلطان  
فرعون وجبروت فرعون : ﴿ أَنْ أَدْوَأَ إِلَىٰ عِبَادَ اللَّهِ إِنَّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿ وَأَنْ  
لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ﴿ (الدخان: ١٨، ١٩) ، فمن ضمن رسالته  
إلى فرعون : أَنْ يُحَرِّرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ هَذِهِ الْعِبُودِيَّةِ الَّتِي تَعْبُدُهُمْ بِهَا فِرْعَوْنُ :  
﴿ فَأَرْسَلْنَا مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعْدِهِمْ قَدْ جَعَلْنَاكَ بِقَايَةِ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلٰى  
مَنْ أَتَّبَعَ الْهُدٰى ﴾ (طه: ٤٧) .

فهو كان مرسلًا إلى فرعون وقومه ، ومرسلًا أيضاً إلى قومه بني إسرائيل ، ككلِّ  
الرسَل الذين أرسلوا إلى أقوامهم إلا محمداً ﷺ ، فإنه أرسل إلى النَّاسِ كَافَّةً ، وذكر  
من خصائصه الحديث المتفق عليه : « وكان النبيُّ يبعث إلى قومه خاصَّةً ، وبعثُ  
إلى النَّاسِ عامَّةً »<sup>(١)</sup> . ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾  
(الأعراف: ١٥٨) .

الفرق بين رسالتي موسى ومحمد عليهما السلام :

﴿ أَنْ أَخْرَجَ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾

كما أرسل محمد ﷺ وأُنزل عليه الكتاب : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ  
النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ (إبراهيم: ١) ، أنزل إلى موسى : ﴿ أَنْ أَخْرَجَ  
قَوْمَكَ ﴾ ، فالفرق بين موسى ومحمد : أن الله يقول لموسى : ﴿ أَخْرَجَ قَوْمَكَ ﴾ .

(١) سبق تخريجه ص (٣٢) .

ومحمد قال له : ﴿ لِيُخْرِجَ النَّاسَ ﴾ . فهذه رسالةٌ محدودةٌ ، وهذه رسالةٌ عامةٌ ، هذه رسالةٌ لقومٍ مخصوصين ، وهذه رسالةٌ إلى العالم .

ولا زال اليهود إلى اليوم لا ينشرون رسالتهم إلى العالم ، لا يزعمون أن عندهم رسالةٌ عالميةٌ ، رسالتهم رسالةٌ قوميةٌ ، رسالةٌ لشعب إسرائيل ، حتى الإله عندهم يقولون : رب إسرائيل . ونحن نقول : رب العالمين . من أوّل آية في القرآن بعد البسملة : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الفاتحة: ٢) ، هم يقولون : رب إسرائيل ، ورب الجنود ، لأنهم مجتمع عسكري محارب .

### التذكير بأيام الله تعالى :

#### ﴿ وَذَكَرَهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ ﴾

ما المراد بأيام الله؟ أيام الله هي : الأيام الجديرة أن تُنسب إلى الله ، فلا يقال : هذا يوم فلان إلا إذا كان هذا اليوم حصل فيه على شهادة كبيرة ، أو جائزة عظيمة ، أو تحقق له شيء رائع ، فتقول : هذا يوم فلان . فعندما تقول : يوم الله . فمعناه : أنه اليوم الذي أنزل فيه نعمًا سابغةً وباهرةً ، أو الذي أنزل فيه نقمًا على المجرمين من عباده ، فهي أيام الله ، فيمكن أن نقول : إن من أيام الله : يوم أهلك قوم نوح بالطوفان ، ويوم أهلك عادًا بريح صرصر عاتية ، ويوم أهلك ثمود بالطاغية ، صيحة أخذتهم فأصبحوا في ديارهم جاثمين ، ويوم أهلك فرعون وجنده ، حينما انفلق بهم البحر وغرقوا جميعًا ، فأغرقناه ومن معه أجمعين .

هذه كلها هي أيام الله ، فهي إما أن تكون أيامًا لإنزال النعم أو لإنزال النقم ، فكان الله تعالى يقول لموسى : ذكّر قومك بأيام الله ، أيام نعم الله عليهم ، وسنأتي في الآية التالية إلى تذكيرهم ببعض النعم : ﴿ إِذْ أَخْبَجْنَاكَ مِنَ أُمَمٍ فِرْعَوْنَ ﴾ .

ويذكّرهم بأيام نقم الله على أعدائهم ، كيف انتقم الله من أعدائهم ، كيف انتقم الله من فرعون الذي أدلّهم واستعبدتهم؟ ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا

شَيْعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ (القصص: ٤) ، وهذا هو القسم الأول من النِّقَم .

ثم يأتي القسم الثاني ، وهو : ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٦٠﴾ وَنُمَكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا تَحْذَرُونَ ﴿٦١﴾ (القصص: ٦٠، ٦١) ، فهذه أيام الله تعالى ، كما قال مؤمن آل فرعون : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَنْقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٦٢﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٦٣﴾ وَيَنْقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٦٤﴾ يَوْمَ تُولُونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴿٦٥﴾ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٦٦﴾ (غافر: ٣٠-٣٣) .

### حاجة الناس إلى التذكير بأيام الله :

الناس بحاجة إلى التذكير بأيام الله حتى لا تنسى ، من طبيعة الإنسان أن ينسى ، كما قال الشاعر :

وما سُمِّي الإنسان إلا لِتَنْسِيهِ      وما القلبُ إلا أنه يَتَقَلَّبُ

الإنسان في حاجة إلى التذكير ، والمراد بالتذكير : إزالة النسيان ، بحيث يجعل الأمر دائما حياً في ذاكرته لا يُمحى ولا يُنسى .

فالتذكير بالنعم لأهلها ، وبالنِّقَم لأهلها ، والتذكير فيه أيضاً معنى العظة والإنذار ، ولذلك يعتبر الرسل مُذَكِّرِينَ ، النبي ﷺ أمر بالتذكير في آيات كثيرة : ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴿٩﴾ (الأعلى: ٩) ، ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ (الذاريات: ٥٥) ، ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿١٠﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿١١﴾ (الذاريات: ٥٥) ،

(الغاشية: ٢١، ٢٢) .

فالتذكير هو منهاج النبوة ، والعلماء هم ورثة الأنبياء ، ومهمتهم أن يسيروا في طريق التذكير ، يُذكرون الناس : بأيام الله ، وينعم الله ، ويفضل الله ويهدي الله عز وجل .

المستفيدون من التذكير بأيام الله :

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾

إن في هذا الإخراج من الظلمات إلى النور ، وفي هذا التذكير بأيام الله آيات دالة ومنبّهة .

لكن لا يتنبه لهذه الآيات ، ولا يستتير بنور هذه الآيات ، ولا يهتدي بهدى هذه الآيات إلا كلُّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ، وهو الإنسان المؤمن ؛ لأنَّ الإيمان نصفان : نصفٌ صبرٌ ونصفٌ شكرٌ ، فكأنه يقول : إن هذه الآيات للمؤمنين الصادقين الذين يقابلون البلاء بالصبر ، ويقابلون النعماء بالشكر . وهذا شأن الإنسان المؤمن كما جاء في الحديث الصحيح : « عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ ؛ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ ، إِنَّ أَصَابَتَهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ »<sup>(١)</sup> . هذا شأن الإنسان المؤمن ، بين صبر وشكر ، بين سرء وضرء ، بين نعماء وبأساء .

دلالة صيغتي المبالغة في قوله سبحانه : ﴿ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ :

وصَبَّارٍ وشكور صيغتا مبالغة - كما يقول أهل اللغة - فهناك رجل آكل ورجل أكال ، الآكل يأكل مرّة ، والأكال : الكثير الأكل ، والصبَّار الكثير الصبر ، والشكور الكثير الشكر ، فليس مجرد صبره مرّة ، أو شكره مرّة أن يكون الأمر قد انتهى ،

(١) رواه مسلم في الزهد والرفائق (٧٦٩٢) ، وأحمد (١٨٩٣٤) ، عن صهيب .

لا بد أن يكون الصبر خلقاً له ، وأن يكون الشكر خلقاً له ، فهو دائم الصبر دائم الشكر .

### سِرُّ تَقْدِيمِ الصَّبْرِ عَلَى الشُّكْرِ :

لكن لماذا قَدَّمَ الصبر على الشكر؟ مع أَنَّ نِعَمَ اللَّهِ سَابِغَةٌ : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهْرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ (لقمان: ٢٠) ، ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (إبراهيم: ٣٤) .

القرآن يريد أن يُوطِّنَ المسلم نفسه على تحمُّلِ البلاء ، لأنَّ البلاء بالمرصاد للإنسان بصفته إنساناً ، يعني مُجَرَّدَ كونه إنساناً ، أصبح مهيباً لنزول البلاء به : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ (البلد: ٤) ، ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ ﴾ (الإنسان: ٢) ، فحياته قائمة على الابتلاء ، وبصفته من أهل هذه الدنيا ، فالدنيا دار ابتلاء من أولها كما قال عليُّ رضي الله عنه : ماذا أصف لك من دار من صَحَّ فيها سقم ، ومن أمن فيها ندم ، ومن افتقر فيها حزن ، ومن استغنى فيها افتتن ، في حلالها الحساب ، وفي حرامها العقاب ، ومتشابهها العتاب<sup>(١)</sup> .

وكما قال الشاعر :

جُبلت على كَدْرٍ وأنت تريدها      صفواً من الآلام والأكدار  
ومكَّلف الأيام ضدَّ طباعها      متطلب في الماء جذوة نار<sup>(٢)</sup>

هذه أيام الدنيا لا تَتَطَلَّبُ أن تكون سعادةً مستمرةً ، أو صفاءً مستمراً ، فصفواؤها مشوب بالكدر ، وسعادتها مشوبة بالشقاء ، وسرورها مشوب بالحزن ، وهذه طبيعة الدنيا .

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (٤/٣٧٢) .

(٢) من شعر : أبي الحسن التهامي ، يرثي ولده .

## تعرُّض أصحاب الرسالات للبلاء :

وأصحاب الرسالات أكثر تعرُّضاً للبلاء من غيرهم ؛ لأنَّ الله الذي خلق آدم ، خلقه ومعه إبليس ، وخلق إبراهيم ومعه نمرود ، وخلق موسى ومعه فرعون ، وخلق محمداً ومعه أبو لهب وأبو جهل ، فالحقُّ يصارعه الباطل دائماً ، فمن يحمل رسالة الحقِّ لا بد أن يُعَادِيَه أهل الباطل ، ومن دعا إلى الصلاح حاربه أهل الفساد ، مَنْ دعا إلى الخير قاومه دعاةُ الشرِّ ، ولذلك لما سئل النبي ﷺ : أيُّ الناس أشدُّ بلاءً؟

قال : « الأنبياء ، ثم الصَّالِحون ، ثم الأمثل فالأمثل ، يُبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه ، وإن كان في دينه رقة خُفِّف عنه ، وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على ظهر الأرض ليس عليه خطيئة »<sup>(١)</sup> . يكفر عنه سيئاته بما ينزل به من بلاء .

« ما يصيب المسلم من نَصَب<sup>(٢)</sup> ، ولا وَصَب<sup>(٣)</sup> ، ولا همٍّ ، ولا حَزَنٍ ، ولا أذى ، ولا غمٍّ ، حتى الشوكة يشاكها ، إلا كفر الله بها من خطاياها »<sup>(٤)</sup> .

والقرآن يخاطب المؤمنين طالباً منهم أن يحملوا دعوة محمد ، وأن يصبروا على ما يصيبهم في طريقها من بلاء وبأساء : ﴿ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (العنكبوت: ٢٥، ٢٦) .

(١) رواه أحمد (١٤٨١) وقال مخرجه : إسناده حسن ، والترمذي في الزهد (٢٣٩٨) وقال : حسن صحيح ، والنسائي في الكبرى كتاب الطب (٧٤٨١) ، عن سعد بن أبي وقاص .

(٢) النَّصَبُ : التعب والمشقة والكد . تاج العروس مادة (نصب) .

(٣) الوَصَبُ : دوام الوجع ولزومه ، وقد يُطلق الوَصَبُ على التعب ، والفُتُورُ في البدن . النهاية في غريب الحديث مادة (وصب) .

(٤) متفق عليه : رواه البخاري في المرضى (٥٦٤١) ، ومسلم في البر والصلوة (٢٥٧٣) ، كما رواه أحمد (٨٠٢٧) عن أبي هريرة .

وهذا سرُّ تقديم الصَّبَّارِ على الشُّكُورِ : ﴿ إِنِّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ ، وقد تَكَرَّرَتْ هذه العبارة في القرآن أربع مرات في مناسبات شتى<sup>(١)</sup> .

التَّذْكِيرُ بِالنِّعَمِ أَصْلٌ مِنْ أَصُولِ الرِّسَالَاتِ :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾

ومن التَّذْكِيرِ بآيَامِ اللَّهِ : أَنْ يذَكِّرَهُمْ بِنِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ ، حَتَّى لَا يَنْسُوهَا .  
والتَّذْكِيرُ بِالنِّعَمِ أَصْلٌ مِنْ أَصُولِ الرِّسَالَاتِ السَّمَاوِيَّةِ كُلِّهَا .

شَكَرَ الْمُنْعَمُ مِنْ أَوَّلِ الْوَاجِبَاتِ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ هُوَ إِنْسَانٌ ، اللَّهُ هُوَ الَّذِي هَيَّأَ لَكَ هَذَا الْكَوْنَ كُلَّهُ ، وَسَخَّرَ لَكَ كُلَّ مَا فِي الْكَوْنَ ، جَعَلَهُ جَمِيعًا فِي خِدْمَتِكَ ، فَالشمسُ تَضِيءُ لَكَ ، وَالقمرُ يَنْبِرُ لَكَ ، وَالنَّجُومُ تَهْدِيكَ ، وَالْبَحَارُ تَسْقِيكَ ، وَالْأَرْضُ ذُلُولٌ لَكَ ، كُلُّ شَيْءٍ فِي الْكَوْنَ مُسَخَّرٌ لَكَ ، فَنِعْمَ اللَّهُ كَثِيرَةٌ ، وَلَكِنْ الْإِنْسَانُ يَنْسَى نِعْمَ اللَّهِ .

وَمِنْ أَعْظَمِ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى الْإِنْسَانِ : أَنَّهُ أَرْسَلَ الرُّسُلَ إِلَيْهِ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ يَهْدُونَهُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى طَرِيقِ اللَّهِ وَإِلَى الْجَنَّةِ .

فَالتَّذْكِيرُ بِالنِّعَمِ أَصْلٌ مِنْ الْأَصُولِ ، لِنَا يذَكِّرُ الْقُرْآنُ الْمُؤْمِنِينَ بِالنِّعَمِ : ﴿ وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ﴾ (آل عمران: ١٠٣) .

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ (المائدة: ١١) .

(١) فِي سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ (٥) ، وَفِي سُورَةِ لُقْمَانَ (٣١) ، وَفِي سُورَةِ سَبَأٍ (١٩) ، وَفِي سُورَةِ الشُّورَى (٣٣) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٩) .

آيات كثيرة في القرآن تُذكر المسلم بنعم الله ، وهذا أصل مهم جداً ؛ أن يذكر الناس نعمة الله تعالى عليهم .

نسيان أكثر الناس نعم الله عليهم :

للأسف كثير من الناس ينسى نعمة الله ، يذكر البلية إذا نزلت به ، بلية واحدة يظل يذكرها ليلاً ونهاراً ، وآلاف النعم يتغافل عنها ، فمن المهم ذكر النعم ، ولذلك سيدنا موسى عليه السلام يُوصَل هذا الأصل حينما يقول لقومه : ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ ، لا تنسوا ما كنتم فيه من ذل واستعباد ، ظللتم قرونًا وأنتم عبيد عند فرعون وقومه .

النجاة من فرعون ملك مصر :

﴿ إِذْ أَنْجَيْنَاكَ مِنَ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾<sup>(١)</sup>

فرعون هو لقب لملك مصر ، وقد كان لكل ملك من الملوك تسمية في هذا الوقت ، فهناك كسرى ملك الفرس ، وقيصصر ملك الروم ، والنجاشي ملك الحبشة ، وتبع ملك اليمن . . . إلى آخره .

وفرعون ملك مصر من المصريين ، إنما الغزاة لا يُسمى ملكهم فرعون ، مثل ملك مصر وحاكمها أيام سيدنا يوسف ، فالقرآن لم يعبر عن حاكم مصر بفرعون

---

(١) آل فرعون : أتباعه وأصحابه ومعاونوه على الشر . وفي أكثر الآيات لا يذكر القرآن فرعون وحده ، إنما يذكر ملاءه أو آله ، ممَّا يدل على إثم المؤازرين له ، وهذا ينبى بأن الطغاة لا يطغون بذات أنفسهم ، ولكن بمؤازرة من الأشياع والأتباع .

وإنما بالملك: ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ ﴾  
يوسف: (٤٣) ، ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾ (يوسف: ٥٤) .

### السُّرُّ فِي تَسْمِيَةِ الْعَزِيزِ بِالْمَلِكِ :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ﴾ ولم يقل : ﴿ فرعون ﴾ ، على خلاف التُّوراة التي كانت تُسمِّيه فرعوناً؟! لأنه لم يكن فرعوناً ، فلم يكن من الأُسُرِ الفرعونِيَّةِ التي حكمت مصر ، إنما كان من ملوك الرعاة أو العمالقة أو الهكسوس ، الذين غزوا مصر من الجزيرة العربية ، وحكموا أهلها عدَّةَ قرون ، إلى أن تجمَّع المصريون تحت قيادة قائد اسمه (أحمس) لحرب الهكسوس ، وحرَّرَ مصر منهم ، كما هو معروف في التاريخ المصري .

ولذلك حاكم مصر في أيام سيدنا يوسف لم يكن فرعوناً ، ولم يكن مصرياً ، هو من الذين حكموا مصر من الخارج . وذلك من دَقَّةِ القرآن ، وأنه حقاً مُنْزَلٌ من لدن حكيم خبير ، الذي يعلم السُّرُّ في السماوات والأرض .

### سبب اضْطِهَادِ بَنِي إِسْرَائِيلَ :

تغيَّرَ الوضع في عهد سيِّدنا موسى ، طُرِدَ الهكسوس أو العمالقة أو الرعاة ، وحكمت الفراعنة مصر من جديد ، أسرة من أسرة الفراعنة حكمت مصر في ذلك الوقت ، واضْطِهَدُوا بَنِي إِسْرَائِيلَ .

لماذا اضْطِهَدُوا بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ البعض يقول : هذا أمرٌ سياسيٌّ لأنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لم يساهموا معهم في حربهم ضدَّ الهكسوس ؛ لأنَّ الهكسوس كان لهم منهم مواقف قديمة من عهد سيدنا يوسف ، فيبدو أنهم لم يساهموا في حرب الهكسوس ، فأخذها عليهم المصريون .

والبعض الآخر يقول : إنَّ فرعون رأى رؤيا .

وقول آخر يقول : إِنَّ الْكَهَنَةَ هُم الَّذِينَ قَالُوا لَهُ : إِنَّ غَلَامًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ سَيْشِبُ وَيَكْبُرُ وَيَزِيلُ مُلْكَكَ عَلَى يَدَيْهِ . فَقَالَ : نَقْتُلُ هَؤُلَاءِ الذُّكُورَ وَلَا نُبْقِي مِنْهُمْ أَحَدًا . فَهَذَا سُرُّ الْعِزْمَةِ الْفِرْعَوْنِيَّةِ عَلَى تَذْيِیحِ الذُّكُورِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَاسْتِحْيَاءِ النِّسَاءِ ، وَهَذِهِ كَانَتْ الْقَاعِدَةُ .

الله سبحانه أنجى موسى عليه السلام ، بأية من الآيات ، ومعجزة من المعجزات ، ونجّاه إلى أين؟ نجّاه الله ليعيش في قصر فرعون ، يعني يُرَبِّي فرعون مَنْ يَزُول ملكه على يديه ، كأنَّ القدر يسخر منه ، يقول له : افعل ما تفعل ، وما أردناه سينفذ رُغم أنفك .

سوء العذاب :

﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾

الأعمال الشاقّة والأعمال المُزْرِية التي يتأفّف منها المصريون ، ويأنفوا أن يقوموا بها ؛ يُكَلِّفون بني إسرائيل بها ، بتنظيف المراحيض ، وحمل الحجارة ، وغير ذلك من الأعمال الشاقّة المهينة .

يَسُومُونَهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ : يُكَلِّفُونَهُمْ بِأَشَدِّ الْأَعْمَالِ وَأَسْوَأِهَا .

سوء العذاب : العذاب هو الألم ، فهم يُكَلِّفُونَهُمُ الْأَشْيَاءَ الْمُؤَلِّمَةَ وَالثَّقِيلَةَ وَالْمَتَعَبَةَ وَالشَّاقَّةَ ، كُلِّهَا يُكَلِّفُ بِهَا بَنُو إِسْرَائِيلَ .

السُّرُّ فِي إِضَافَةِ الْوَاوِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَيَذَّبْحُونَ ﴾ :

﴿ وَيَذَّبْحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾

في هذه السُّورَةِ أَضَافَ (واو) العطف في قوله : ﴿ وَيَذَّبْحُونَ ﴾ ، وفي سورة البقرة قال : ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ (البقرة: ٤٩) ، يذَّبِحُونَ

هنا - في سورة البقرة - للتفسير أو للبدل يعني : ما هو سوء العذاب ؟ هو تذييح الأبناء واستحياء النساء .

## الفرق بين التقتيل والتذييح :

في سورة الأعراف : ﴿ يُقْتَلُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَهُمْ ﴾ (الأعراف: ١٤١)، فأحياناً يُعبر عن سوء العذاب بالتقتيل وأحياناً يُعبر عنه بالتذييح .

التقتيل : هو إزهاق روح الإنسان بأيِّ آلةٍ من الآلات ، أما التذييح فهو : تقطيع الرقاب . فهم أحياناً يُقَطِّعون الرقاب ، وأحياناً يقتلون بالآلاتِ أخرى .

والتعبير القرآني يقول : ﴿ يُذَبِّحُونَ ﴾ ، و﴿ يُقْتَلُونَ ﴾ ولم يقل : (يَذبحون) و(يقتلون) لأنَّ هذا يدلُّ على التكثير ، ومعنى ذلك أنها مجازر ، يُذَبِّحون ويُقْتَلون . ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ في آية البقرة والأعراف فسّر هذا السوء بأنه : التذييح أو التقتيل للأبناء واستبقاء النساء أحياء .

وفي هذه الآية عطف ﴿ وَيُذَبِّحُونَ ﴾ ، يعني جعل هذا أمراً آخر ، فهم كانوا يكلّفونهم بالأعمال الشاقة ، ويذبحون أبناءهم ، فأضافت هنا معنىً جديداً ، يعني غير الأعمال الشاقة والمزرية والمذلة التي كلّفوهم بها ، ذبحوا أبناءهم واستحيوا نساءهم<sup>(١)</sup> .

والأبناء : الأولاد الذكور ، واستحيوا نساءهم ، أي : أبقوهم على قيد الحياة للخدمة والمتعة ، فالنساء كانت تعمل خادماً عندهم ، وهذا أشدُّ من القتل ،

---

(١) قال الفيروزآبادي في لطائف الكتاب العزيز (١٤٢/١) : قوله : ﴿ يُذَبِّحُونَ ﴾ (البقرة: ٤٩) ، بغير واو على البدل من ﴿ يَسُومُونَكُمْ ﴾ ، ومثله في الأعراف : ﴿ يُقْتَلُونَ ﴾ ، وفي إبراهيم : ﴿ وَيُذَبِّحُونَ ﴾ بالواو ؛ لأن ما في هذه السورة - البقرة - والأعراف من كلام الله تعالى ، فلم يرد تعدد المِحْن عليهم ، والذي في سورة إبراهيم من كلام موسى ، فعَدَّد المِحْنَ عليهم ، وكان مأموراً بذلك في قوله : ﴿ وَذَكَّرَهُمْ بِأَيْمِ اللَّهِ ﴾ .

فالإنسان الكريم يعدُّ استبقاء ابنته وامراته عند عدوّه لتخدمه أشدَّ عليه من القتل والذبح .

مرجع الضمير في قوله سبحانه : ﴿ ذَالِكُمْ ﴾ :  
﴿ وَفِي ذَالِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾

هل معنى : ﴿ وَفِي ذَالِكُمْ ﴾ الإنجاء ، فيكون البلاء هنا نعمة ، كما قال سبحانه :  
﴿ وَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ (الأنبياء: ٣٥) ، أو يكون معنى : ﴿ وَفِي ذَالِكُمْ ﴾ أي : في تقتيل الأبناء واستحياء النساء ، بلاءً من ربكم عظيم ، بلاءً شديد ومحنة عظيمة . وأي محنة أعظم من هذه!؟

ربكم هو الذي فعل هذا ؛ لِيُؤدِّبَكُمْ لأنكم خرجتم على دين التوحيد ، وأتبعتم ملَّةَ الآخرين ، تركتم ملَّةَ إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، وأتبعتم ملَّةَ المصريين ، وعبدتم معهم الأصنام ، وانحرفتم عن دين التوحيد الذي جاء به أنبياءكم من قبل .

إعلام موسى قومه بسنة إلهية :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾

لا زال سيدنا موسى يخاطبهم ، ويقول لهم : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ﴾ ، من الإذن والإعلام ، كما قال سبحانه في آية أخرى عن بني إسرائيل : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الأعراف: ١٦٧) ، أي : أعلمكم ربكم بهذه الحقيقة ، بهذه السنة ، بهذا القانون الإلهي : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ .

## الإنسان بين الشكر والكفر :

لأنَّ الإنسان بين شكر وكفر ، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ (الإنسان: ٣) ، والشكر له ثوابه ، والكفر له عقابه ، شكر النعمة والكفر بالنعمة لا يُترك ، لكنَّ الله من سنَّته الثوابُ والعقابُ في الدنيا وفي الآخرة ، وهنا هذا الثواب في الدنيا : ﴿ لِيَن شَكَرْتُمْ لِأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ .

والشكر والزياده عليه متعلِّق بالنعمة ، فكلُّ نعمة يقابلها شكرٌ أو كفرٌ ، فالحديث هنا عن النَّعم ، وهو يذكرهم بنعم الله : ﴿ لِيَن شَكَرْتُمْ لِأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ ، ثمَّ بيَّنَّ لهم هذا القانون .

## قوانين قرآنية :

هناك قوانين قرآنية مثل القوانين الطبيعيَّة : ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (محمد: ٧) ، هذا قانونٌ قرآنيٌّ .

وهناك : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ (الطلاق: ٢) .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (الرعد: ١١) ، هذه قوانين قرآنية .

## معنى الشكر وعناصره :

﴿ لِيَن شَكَرْتُمْ لِأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ .

ما معنى الشكر؟ الشكر معنى مُركَّب من عدَّة عناصر ، بعضه يتعلق بالقلب ، وبعضه يتعلق باللسان ، وبعضه يتعلق بالجوارح .

## شكر القلب :

أما ما يتعلق بالقلب : فأنت تعترف بأن الله تعالى هو المنعم ، فالنعم كلها من عنده : ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْرُونَ ﴾

(النحل: ٥٣) .

لا بد أن يعترف القلب بهذا ، فليس من المعقول أن يقدم لك أحد خدمة ولا تشكره ، كما جاء في الحديث : « لا يشكر الله من لا يشكر الناس »<sup>(١)</sup> . ولكن لا بد أن تعلم أن الذي رقق قلبه لك ، ويسره لخدمك هو الله ، فلا تنسى صاحب الفضل الأول .

فالأمر الأول : أن تعترف بأن الله هو صاحب النعم كلها . هذا ما يتعلق بالقلب .

## شكر اللسان :

الأمر الآخر : ما يتعلق باللسان ، فتقول : الحمد لله . تشكر بلسانك ، وتحمد لله به كما قال الشاعر :

لك الحمد مولانا على كلِّ نعمة      ومن جملة النعماء : قولي لك الحمد

يعنى : أحمدك على كلِّ ما أنعمت به عليّ ، ومن جملة هذه النعم : أن وفقتني لأن أقول لك : الحمد لله . فهذه نعمة جديدة ، كما قال الشاعر :

إذا كان شكري نعمة الله نعمةً      عليّ له في مثلها يجبُ الشكر

فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله      وإن طالت الأيام واتصل العمر<sup>(٢)</sup>

---

(١) رواه أحمد (٧٩٣٩) وقال منخرجه : إسناده صحيح على شرط مسلم ، وأبو داود في

الأدب (٤٨١١) ، والترمذي في البر والصلة (١٩٥٤) وقال : حديث صحيح ، وصح

الألباني إسناده على شرط مسلم ، السلسلة الصحيحة (٤١٦) ، عن أبي هريرة .

(٢) من شعر : محمود الوراق .

مهما قلت لن تستطيع أن توفي الله تعالى حقه من الشكر ، لأنك إذا شكرت الله هذه نعمة جديدة تحتاج شكراً جديداً ، فلن ينتهي الشكر أبداً ، لن تستطيع أن تعطي الله تعالى حقه من الشكر .

حَمْدُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عَلَى نِعَمِهِ :

الشكر باللسان تقول : الحمد لله .

الإسلام علمنا إذا أكلنا وشبعنا أن نحمد لله<sup>(١)</sup> .

إذا ركبنا الدابة أو السيارة أن نقول : الحمد لله ، ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ (الزخرف: ١٣، ١٤)<sup>(٢)</sup> .

تستيقظ من نومك تقول : « الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور »<sup>(٣)</sup> . كل هذا يعلمك الحمد .

كان رسول الله ﷺ إذا رأى ما يحبُّ قال : « الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات » ، وإذا رأى ما يكره قال : « الحمد لله على كلِّ حال »<sup>(٤)</sup> ، أي : إذا كان الأمر يكرهه يقول : الحمد لله . لذلك نقول : الحمد لله ، الذي لا يحمد على مكروهه سواه .

ربنا وحده هو الذي يُحمد على المكروه ، لأنَّ المكروه قد يكون وراءه خير وأنت لا تدري : ﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا

(١) إشارة إلى الحديث : « إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها » رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٣٤) ، عن أنس بن مالك .

(٢) رواه مسلم في الحج (١٣٤٢) عن ابن عمر .

(٣) رواه البخاري في الدعوات (٦٣١٢) ، عن حذيفة .

(٤) رواه ابن ماجه في الأدب (٣٨٠٣) ، والطبراني في الأوسط (٦٩٩٩) ، والحاكم في الدعاء

(٤٩٩/١) ، وصحح إسناده على شرطهما ، وسكت عنه الذهبي ، وصححه الألباني في

صحيح الجامع (٤٦٤٠) ، عن عائشة .

وَهُوَ شَرُّ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿البقرة: ٢١٦﴾ ، ﴿فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَنَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ١٩) .

وربَّ ضارة نافعة ، وكم من منحةٍ في طيِّ محنة . فقل : الحمد لله دائماً . من الشكر المطلوب : أن تقول ذلك دائماً ، أن تُعوِّد لسانك على الحمد لله .

## شكر الجوارح :

والأمر الثالث : شكر الجوارح . فالبدنُ كلُّه يجب أن يشكر الله باستعمال النعم فيما يُرضي الله عزَّ وجلَّ ، فيما يُحبُّ الله لا فيما يكره ، فيما يَرْضَى عنه لا فيما يَسْخَطُ الله عليه .

لا يجوز أن تُسَخَّرَ نِعَمَ الله في معصية الله ، كثيرٌ من الناس لم يعرفوا قدر النعم التي منَّ الله عليهم بها ، فاستخدموها في معصية الله ، فمثلاً الله أعطاه هذا الهاتف ، فبدلاً من أن يستخدمه البعض في قضاء المصالح ، يستخدمه في معاكسة الفتيات أو النساء في بيوتهنَّ ، فيقلب النعمة إلى نقمة ، والعياذ بالله عزَّ وجلَّ .

خلق الله له العقل الذكيَّ ليستخدم ذكائه فيما يُصلح نفسه ، ويُصلح أسرته ويُصلح أمته ، فتجده يستخدم هذا الذكاء في الإفساد ! فلم يصبح هذا العقل آلة خير ، بل أصبح آلة شر لإشاعة الفساد في المجتمع .

ومثل ذلك : العلم الحديث الآن ، الله سبحانه سَخَّرَ للناس العلم ، العلم الطبيعي ، العلم الكوني : الفيزياء ، والكيمياء ، والرياضة ، والفلك ، وعلم الذرة ، والثورات العلمية التي نعرفها كلها : الثورة الجيولوجية ، والإلكترونية ، والفضائية . . . إلخ .

الإنسان - للأسف - بدل أن يستخدم هذه القوى التي هيأها الله له ، وهذه النعم العظيمة فيما ينفع البشرية ، استخدمها فيما يضرُّ البشرية وفيما يفسد البشرية ، فمثلاً أمريكا آتاه رُبنا قارةً بَكْرًا ، فيها من الخيرات ما يكفي أضعاف أهل أمريكا ، ثم انظر إلى الصين : ألف ومائتي مليون آخذين قطعة صغيرة من آسيا .

حتى قال (ماوتسي تونج) : نحن ندعو إلى إعادة توزيع البشر على الكرة الأرضية من جديد ، فغير معقول أن الأمريكان يأخذوا قارة وحدهم والكنديين ، والناس في بنجلادش مائة وسبعين مليون ، لو تنظر إليها على الخريطة تجدها بلداً صغيراً جداً ، ومصاب بالفيضانات ، فتأتي فتقتلع زروعه ، وتدمر عليه أمره .

هؤلاء آتاهم ربنا هذه القارة ، وآتاهم العلم ، وآتاهم التكنولوجيا ، وآتاهم . . . وآتاهم . . . لكنهم لم يستخدموا هذا في مصالح الخلق ، وفي إعمار الكون ، وإنما استخدموه في تدمير الأقاليم ، وفي إذلال الشعوب ، في الطغيان على خلق الله ، في التأله في الأرض ، كما قال تعالى عن قوم عاد : ﴿ فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ (فصلت: ١٥)؟ هكذا أمريكا قالت : مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً؟ ﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ (فصلت: ١٥) ، هم تألهوا في الأرض .

من خصائص الألوهية : أن الله سبحانه قال عن ذاته المقدسة : ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ (الأنبياء: ٢٣) ، أمريكا لا تُسأل عما تفعل ، ولا تُحاسب على ما تقول ، تفعل ما تشاء ، تغزو أي بلد ، هكذا هي متألهة في الأرض .

هذا هو الكفر بالنعم ، أما الشكر : أن تستخدم النعمة فيما خلقت له ، فيما تصلح به الحياة ، فيما يصلح به الإنسان ، فيما ينهض بالبشرية ، فيما يرقى بها ، فيما يجعل يومها خيراً من أمسها ، ويجعل غدها خيراً من يومها ، هذا هو الشكر ، والكفر عكس ذلك ، وهو أن تستخدم النعمة ضد ما خلقت له ، وضد ما يريد الله منها وما يحب الله منها .

قانون : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ :

والله عز وجل يقول : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ ، أزيد النعم وأوسعها عليكم وأدرها ، فتستمر هذه النعم ، فهذا هو القانون في الشق الأول : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ .

واللام هنا في قوله تعالى : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ ﴾ موطئة للقسم ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ ﴾ ،  
﴿ وَلَئِن كَفَرْتُمْ ﴾ كأن الله تعالى يقسم ويؤكد على أن هذا القانون الإلهي قانون  
لا يُخْرَم ، ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ .

﴿ وَلَئِن كَفَرْتُمْ ﴾ ، بنعمتي ولم تؤدوا حقها ، ووضعتوها في غير موضعها ،  
وجعلتموها في الإفساد بدل الإصلاح ، وفي الشر بدل الخير ، وفي إبطال الحق  
وإحقاق الباطل ، قلبتم النعم إلى أدوات في يد إبليس ، بدل أن تكون وسائل  
يرضى عن آثارها الرحمن ، أصبحت وسائل يرضى عنها الشيطان .

عقاب كفران المنعم :

﴿ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ ، عذاب في الدنيا قبل عذاب الآخرة ، الله  
تعالى يعاقب من كفر بنعمته ، كما قال الله عز وجل : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً  
كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ  
فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ (النحل: ١١٢) .

سلب نعمتي الأمن والغنى :

أعظم ما تطلبه المجتمعات لتسعد في حياتها أمران : الأمن والاطمئنان ، والرغد  
والسعة في العيش ، الكفاية والأمن ، كما امتن الله على قريش بقوله : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا  
رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٦﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّن خَوْفٍ ﴾ (قريش: ٣، ٤) .

شرُّ ما يُصَاب به المجتمع هو : الجوع والخوف ، الذي يُبتلى بهذين الأمرين  
- كما هو الشأن في كثير من بلادنا العربية والإسلامية - ابتلي بلاء عظيما .

إن مجتمعاتنا مبتلاة بالجوع والخوف ، أكبر نسبة من البطالة ، وأكبر نسبة من  
الفقر ، وأكبر نسبة من الجائعين ، ممن يعانون من أمراض سوء التغذية ، وممن  
يموتون من هذه الأمراض ، في بلادنا العربية والإسلامية .

انظر إلى الهياكل العظيمة التي نراها على شاشات التلفزيون في السنغال وفي الصومال ، وفي إفريقيا ، هياكل ، فهم لا يجدون ما يأكلون ، لا يجدون القوت .  
بلادنا مصابة بهذا البلاء : (الجوع أو الخوف) ، وأحياناً يبتلوا بالاثنين معاً بالجوع والخوف .

من حقّ الناس أن يخافوا ، الواحد يدخل بيته لا يدري ربما جاءه من يأخذه إلى حيث لا يشعر إلى مكان وراء الشمس ، مثل إخواننا في العراق الآن ، يُخطف أحدهم من بيته ، ولا يُعرف أين ذهب ، ولا من أخذه؟ ولا يعرفون له جثة ، وأحياناً يجدون جثته في خربة من الخرائب ، أو في طريق من الطرقات ، هذا هو حال من فقد الأمن .

الأمن شيءٌ عظيم ، لذا من خصائص الجنة أنها دار أمن ودار سلام : ﴿ أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِينِينَ ﴾ (الحجر: ٤٦) .

سَيدنا يوسف لما استقبل أبويه وإخوته قال لهم : ﴿ أَدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِينِينَ ﴾ (يوسف: ٩٩) ، فالأمن أهم ما يطلبه الإنسان ، فإذا كان معه سعة العيش ورغده ، كانا نعمتان من أعظم ما يؤتاه الإنسان ، فمن كفر بنعمة الله سلب هذين الأمرين .

نتيجة الإعراض عن سنن الله وشرعه :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ (النحل: ١١٢) . بعد رَغَد العيش ، أصيبت بالجوع ، بعد أن كانت آمنة مطمئنة ، أصيبت بالخوف ، ولم يكن هذا ظلماً من الله لهم ، ولكن بما كانوا يصنعون : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (يونس: ٤٤) ، ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (آل عمران: ١٨٢) .

ذكر لنا القرآن من قصص الكفر بنعمة الله في أكثر من سورة ، كما ذكر في قصة سبأ : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ﴾ ما هي هذه الآية؟ ﴿ جَنَّاتٍ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن زَرْقٍ رَبِّكُمْ وَأَشْكُرُوا لَهُ ۗ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ ﴿١٦﴾ فَأَعْرَضُوا ﴾ (سبأ:١٥، ١٦) . أعرضوا عن هداية الله ، أعرضوا عن منهج الله ، أعرضوا عن سنن الله ، حتى لم يهتموا بأمر الزراعة ، وأمر السدود ، وأمر السقي والحرث ، بل أفسدوا ، وعاشوا في ترف ككثير من الناس حينما تتسع عليهم النعم ينسون حق هذه النعم ، النعم يجب أن تصونها ، وتصونها ليس بأن تقول : يا ربُّ صنُّها ، لا ، لا بد أن تعمل على صيانتها .

كان عند هؤلاء القوم سدٌّ يُسَمَّى : سدَّ مَأْرَبٍ . فأهملوا أمر السدِّ ؛ فكانت النتيجة أن جاء سيل العرم ، ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ (سبأ:١٦) ، كفروا بالنعم : ﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَافِرَ ﴾ (سبأ:١٧) ، مَنْ يكفر بالنعمة ينزل به عذابُ الله ، يُعَجِّلُ اللهُ له العذاب إذا أهمل سننَ الله ، أو أهمل شرعَ الله ، فإذا أهملها معاً كانت المصيبة مصيبتين : ﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَافِرَ ﴾ (سبأ:١٧) .

هذا القانون الرباني الذي ذكره سيدنا موسى لقومه ، وذكره القرآن بهذه الصيغة ، وحينما يذكر القرآن مثل هذه الصيغ ، يخصنا بالحديث أيضاً من ناحية أخرى ، لأنَّ مثل هذه القوانين الإلهية لا تنسخ ، القوانين هي هي ، لأنَّ ربنا سيُجازي الشكور من بني إسرائيل بالزيادة ، وسيُجازي أيضاً الشكور عندنا - يعني عند المسلمين - هذه قوانين تُمثِّلُ عدلَ الله في الأرض ، هي ثابتة غير منسوخة ، وكما قال الأصوليون : شرعٌ مَنْ قَبْلُنَا شرع لنا ، ما لم يرد عندنا ناسخ له . ولم يرد في ديننا ما ينسخ هذا ، لذا يُخاطَبُ به المسلمون ، ويُخاطَبُ به غير المسلمين : ﴿ لِيَن شَكَرْتُمْ لِأَزِيدَنَّكُمْ وَلِيَن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ (إبراهيم:٧) .

الله سبحانه أنعم على أهل الخليج بالبتروول ، وسَّع عليهم من رزقه ، وأفاء عليهم من فضله ، بعض الناس عَرَفَ هذا الأمر ، وعَرَفَ لله حقَّه ، وعَرَفَ للمال حقَّه ، وعرف للفقراء حقَّهم ، وأدَّى الزكاة وغير الزكاة .

وبعض الناس يظنُّ أنَّ هذا المال دائم له هو ، وأنه يستحقُّه ، يقول كما قال قارون : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ (القصص: ٧٨) ، أنا بجهدي وخبرتي ، وبمهارتي وبذكائتي جمعتُ هذا المال ، أنا أحقُّ به .

هل البتروول الذي ظهر تحت الأرض ، هل ظهر بذكائنا وبمهارتنا؟ لا ، بل ظهر بذكاء ومهارة الخبراء الأجانب ! الخبراء هم الذين اكتشفوا ، ونحن استفدنا منهم ، فالله هو الذي سخر لنا هذا ، فعلينا أن نشكر نِعَمَ الله عزَّ وجلَّ ، حتى يزيدَ الله لنا من فضله وحتى يثبَّت الله هذه النعم :

إذا كنت في نعمة فارمها      فإن المعاصي تُزيل النعم  
وداوم عليها بشكر الإله      فرب العباد سريع النقم<sup>(١)</sup>

الله سبحانه غني حميدٌ :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾

لا تظنُّوا أنَّ الله حين يطلب منكم أن تشكروا نِعَمه ، وأن تسيروا على منهاجه ، وأن تتقوه ، وأن تؤدُّوا إليه حقَّه ، أنَّ الله في حاجة إليكم؟! لا ، الله هو الغنيُّ عن كلِّ الناس ، وكلُّ من عداه وما عداه محتاجٌ إليه ، نحن لا وجود لنا من ذاتنا ، ولا قدرة لنا من ذاتنا ، نحن كنا عدماً فأصبحنا شيئاً مذكوراً : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً ﴾ (الإنسان: ١) ؟ فنحن لم نكن شيئاً مذكوراً ، من الذي جعلنا شيئاً مذكوراً ؟ من الذي وهب لنا الحياة ؟ الله ، هو الذي

(١) تنسب هذه الآيات إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

خلقنا من عدم ، هو الذي سخر لنا النعم ، هو الله ، فينبغي أن نعلم أننا جميعاً محتاجون إلى الله ، فقراء إليه ، والله سبحانه غنيّ عنا : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (١٥-١٧) .

وفي الحديث القدسي : « يا عبادي ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم : كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً .

يا عبادي ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم : كانوا على أفجر قلب رجل واحد ، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً »<sup>(١)</sup>

الله سبحانه هو الغنيّ عن طاعة المطيعين ، لا تنفعه طاعة من أطاع ، ولا تضره معصية من عصى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ (فصلت: ٤٦) ، ﴿ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ (النمل: ٤٠) .

وكما قال سيدنا سليمان حينما جاءه عرش بلقيس ، جاءه من اليمين في لمح البصر : ﴿ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ، وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ (النمل: ٤٠) ، يعني يختبرني أعرف حق هذه النعمة فأشكر ، أم لا أعرفها فأكفر بنعمة الله؟ ليبلوني ويختبرني أشكر أم أكفر؟ ﴿ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ .

\* \* \*

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٧٧) ، وأحمد (٢١٣٦٧) ، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٩٥) ، عن أبي ذر .